الشهيد

رائحة الموت تنبعث من كل مكان، نار الحرب العراقية الإيرانية تستعر بعنف ودون هوادة، لهيبها المتلوي الأحمر يعلو بقوة ليصل بسرعة خارقة إلى بيوت جميع العراقيين، يكوي أفئدتهم ينتزع حياة أحبابهم، ويملأ حياتهم سواد قاتم، شوارع بغداد تلتحف باللون الأسود، الناس في حذر وخوف رغم معنوياتهم العالية، لا أحد يحزر النتائج رغم أن البيانات العسكرية تفيد بانتصارات باهرة على العدو الإيراني، اليوم قصفنا العديد من المدن وأمس استطعنا تحرير تلك المناطق الحدودية، العدو تكبد خسائر فادحة بالآليات والأشخاص، الله معنا والنصر لنا وإننا لغالبون.

طائراتنا تحلق مُسرعة نحو أهدافها في أجواء إيران لترسل حممها السوداء القاتلة، القِطع العسكرية البرية تلتحم بشراسة ودون رحمة مع قطعات العدو وتسحقها، هيليكوبترات بحريتنا الباسلة من نوع سوبر فريليون فرنسية الصنع، والتي تحمل صواريخ اكسوسيت فرنسية الصنع الموجهة، تُغرق السفن والبواخر الإيرانية مُرسلة إياها في قاع الخليج العربي، اقتصاد البلدين على قوتهما في انهيار مستمر في ظلّ تدهور أسعار النفط العالمية، أعداد القتلى يتزايد بشكل رهيب، الجرحى ذوي الإصابات الخفيفة والمتوسطة يتم نقلهم إلى المشافي الميدانية، أما المصابون بإصابات بالغة فيرسلون إلى مشافي المدن الكبرى...

الأسرى لا يعرف مصيرهم؛ فالطرفان يتسترن على إعلان أعدادهم، أما الشهداء فيرسلون إلى أهاليهم يلفهم العلم العراقي بألوانه الثلاثة، الأسود الذي يمثل الموت الذي يلف حياة العراقيين والأحمر ويعني جريان الدم العراقي المستمر، أما الأبيض المسكين فيكاد يكون ليس له أي محل بينهما.

الكل في دوامة الحرب الطاحنة والقتال وتحت رحمة الإعلام الكاذب، العراق يدعي أنه أسقط مئات الطائرات الإيرانية، والتي اتضح أنها ليست طائرات بل كانت خزانات وقود إضافية يرميها الطيار بإرادته حين يفرغ وقودها كي يجعل طائرته أكثر مرونة ورشاقة، إيران تدعي الشيء ذاته، والناس بين دوامتي الكذب الإعلامي، الشيء الأكيد من الحقيقة والذي يظهر كنور الشمس الساطعة هو ازدياد أعداد توابيت القتلى، التي تحملها طوابير سيارات الأجرة التي تنقلهم إلى ذويهم، وكذلك اللافتات السوداء التي غطت جدران مناطق وحارات المدن العراقية وأصبحت اللون المُمَيز لها.

ماكينة الحرب تدور على مدار الساعة، الحرب تشتد والجميع في ترقب وحذر وخوف دائم من الآتي، مرت أشهر على بداية الحرب وأنا لا أزال أعمل في قاعدة الشعيبة الجوية في البصرة، الجيش العراقي يبذل جهود استثنائية للحفاظ على إبقاء سيطرته على الموقف، أو على الأقل الحفاظ على توازن قوى مقبول، في حين يرسل الجانب الإيراني موجات بشرية هائلة غير مدربة، يزودهم بمفاتيح الجنة مع خرق قماش ملونة يضعونها على جباههم ويوجهونهم نحو الجبهات الممتلئة بحقول الألغام المختلفة، يسيرون دون خوف، تتتفجر الألغام بأجساد الفتية مُحيلة إياها إلى شظايا وأجزاء غير مرئية.

ينقص عدد المهاجمين ولكنهم يستمرون بالتقدم، الغربان السوداء فرحة جدًا ستحصل على وجبة طعام بشرية طازجة شهية، أصوات انفجارات الألغام تصم الأذان، أشلاء البشر تنتشر دون ترتيب، ما زالوا يتقدمون تتفجر بهم ألغام أخرى، يتضائل العدد أكثر ولكنهم أكثر إصرارًا على المُضي قدمًا، المهم عندهم أن يسيروا إلى الأمام ولا شيء يوقفهم، يقطعون مسافة غير طويلة بعد سقوط المئات أو الآلاف منهم، العدد لا يهم بل المهم أن يصلوا إلى حدود القِطع العراقية، تصلهم تعزيزات إضافية لابد من اقتحام المواقع العراقية.

المدفعية العراقية ترسل هداياها القاتلة إلى الإيرانيين؛ فتزيد سرعة انتحارهم أصواتها رهيبة، ما زالوا يتقدمون ويصلون إلى مسافة ليست ببعيدة عن جنود الجيش العراقي ولا يعلمون أن قدرهم قد رُسمَ مسبقًا، فتبدأ براميل المتفجرات التي كانت قد زرعت للقائهم بالانفجار وحرق الكثير منهم، الموجات البشرية الهائلة تنهار وتنتهي، ولم يتبقَ سوى عدد محدود من المهاجمين الإيرانيين المحظوظين الواصلين إلى الساتر الأول، حينها تنهال عليهم بنادق ورشاشات الجنود العراقيين لتسحقهم بالكامل...

تتكوم جثث الإيرانيين الراغبين بزيارة سريعة إلى الجنة بعض فوق بعض، محدثة رُكام بشري هائل، إنها مجزرة بشرية هائلة، لقد خطط القادة الإيرانيون أن يفتحوا مسالك صالحة للعبور في حقول الألغام ولكن بأجساد هؤلاء المتطوعين، البعض القليل ممن بقي حيًا إثر نفاذ ذخيرة القِطع العراقية يخترق خط الجبهة وينفذ إلى داخلها.

ليلاً وتحت ستار الليل الحالك تتداخل أحيانًا القِطع العراقية والإيرانية دون قتال لشدة إجهادهم، بحيث يكاد الجنود يسمعون أصوات غرمائهم بوضوح دون أن يتعرض أحدهما للآخر، وكأن هدنة حرب غير معلنة قد حصلت دون اتفاق.

حدثني قبل أيام صديق عراقي يقطن في الدنمارك يدعى علي أبا سيف يعمل ميكانيكي لتصليح السيارات؛ كيف عاش وعايش أحداثًا مرعبة وأهوالاً لا تُصدَّق أيام الحرب العراقية الإيرانية، كان علي شابًّا بعمر الزهور، متوسط الطول، جميل الطلعة، أسمر البشرة وذا سَحنة بصْرية مُحبَّبة، قد انخرط في الجيش كجندي مكلف، سرعان ما تمَّ ترشيحه إلى صنف (المغاوير)، وهذه قوات تعتبر خاصة في تدريبها والمهمات الصعبة التي تُناط بها، لم يُنهِ علي دورته حتى تمَّ الزج به في آتون المعارك، وبالتحديد على الساتر الأمامي وعلى بعد أمتار من القِطع الإيرانية.

التحق علي بوحدته العسكرية فورًا بُعيد هجوم اليوم العظيم في جزيرة أم الرصاص عام ١٩٨٥، حين تسلل عدد كبير من الضفادع البشرية الإيرانية ليلاً تجاه القِطع العراقية التي كانت مُنهكة جدًا، ولم يتسنَ لها معرفة قدوم الإيرانيين، تداخل الطرفان في قتال ملحمي قريب بكافة أنواع الأسلحة، حتى وصل العراك بالأيدي والأسنان وحصد الكثير من أرواح العسكريين من الطرفين، حتى تكونت أكوام من جُثث الإيرانيين والعراقيين على حد السواء.

لم يسع القوات العراقية من دفن جثث الإيرانيين كما اعتادوا دومًا، أو نقل جثث العراقيين إلى الوحدات الخلفية كي يتم إرسالهم بتوابيت ملفوفين بالعلم العراقي إلى ذويهم، كان على "علي" ورفاقه أن يعملو ليل نهار في شتاء قاسي البرودة، إذ كانوا يحفرون ملاجئ نهارًا ويسعون لإقامة السواتر الترابية أمام القِطع العراقية، وفي الليل يمسكون خفارة كي يرصدوا حركات العدو، وهكذا لم يَسع لعلي ورفاقه النوم على مدار الساعة.

كان علي وزملائه يعملون يأكلون يحفرون مواضع يمسكون واجبات الرصد وهم بين جثث القتلى التي تعفنت وأخذت تطلق روائح كريهة تزكم الأنوف، لقد أحدثت هذه الروائح لعلي وبعض رفاقه حساسية في الجهاز التنفسي مع سيلان الدموع في أعينهم، يسرد علي قصته الحزينة لي ويقول:

– لقد كانت رائحة جثث القتلى لا تطاق، كما أن منظر وحركة الدود الذي تكون داخل الجثث وتراكمت على أسطحها أخذ يثير الرعب والاشمئزاز في نفوسنا، بعد خمسة أيام فقط بدأت عملية نقل جثث العراقيين ودفن جثث الإيرانيين.

كما يحدثني علي عن موقف مماثل حصل له لاحقًا بعد أن تمَّ التخلص من جميع الجثث، كان علي يحتل برج مراقبة لغرض رصد حركات العدو، إلا أنه والآخرون استمروا يشمون روائح كريهة ولا يعلمون سرها، إذ أنهم لم يلحظوا أي شيء يبعث إلى ذلك، كان برج المراقبة قد قُصف سابقًا مما أدَّى إلى

انحرافه وسقوطه، لكن علي ورفاقه استمروا في اعتلائه والتواجد فيه لأغراض رصد حركة العدو، استمر الحال ولا أحد يعلم ماهية هذه الرائحة، حتى قاموا بإزاحة هذا البرج فوجدوا أسفله جثة مقاتل عراقي كان البرج قد سقط عليه ونُسي أمرهُ حتى تعفنت وتهرأت جثته دون علم أحد.

اصطدموا بمشكلة كبيرة حين أرادوا إخلاء ونقل الجثة، عندما حاولوا سحبها من اليد بُترت اليد لأنها كانت متفسخة للغاية، وكذلك حصل عندما سحبوا رجل القتيل حيث انفصلت بأيديهم، ورغم أكوام الدود والرائحة الكريهة القاتلة إلا أنهم استطاعوا أخيرًا إخلاء الجثة بطريقة لفها ببطانية ونقلها إلى الوحدات الخلفية، يقول علي إنه كان مصدوم في أعماقه للغاية إذ أنه لأول مرة في حياته يرى جثة شخص ميت وبهذه الطريقة المرعبة والشكل الكريه.

نحن في القاعدة الجوية في البصرة نبذل جهود جبارة، نعمل ليل نهار كي نرفع صلاحية الطائرات إلى أقصاها، والتي لا تبخل بغارات القتل المستمرة سواء على القِطع العسكرية الإيرانية المرابطة على خطوط الأمامية لجبهات القتال أو على المدن والمنشآت الإيرانية الأخرى، إن وضعنا وظروف عملنا في القواعد الجوية بالمقارنة مع وضع وظروف قتال المشاة العسكريين على خطوط الجبهات الأمامية كانت لا تقارن وأرحم بكثير، إذ أن عملنا رغم حساسيته وتأثيره الكبير كان يعتبر أقصى درجات الرفاهية التي ما بعدها رفاهية بالنسبة لهم.

أزور بغداد في إجازاتي حين يسمح الموقف القتالي في وحدتي العسكرية بذلك، وكعادتي لابد أن أعرج على خان شاه بندر وشارع النهر للمتعة والتسلية وزيارة الأصدقاء الذين تربطني بهم صلات قُربى، نجلس نحتسي الشاي المطَّعم بالهيل، نتحدث عن حال الدنيا وأمور الحرب وأيام السلام الرائعة، ننتبه للمذياع باهتمام حين يخرج علينا الناطق الرسمي للقيادة العامة للقوات المسلحة العراقية بإعلان بيان مهم حول تنفيذ غارة جوية ما، أو هجوم بري جديد، أو إغراق

هدف بحري كبير، يزداد عدد قتلى العدو كما تزداد عدد اللافتات السوداء في بغداد وباقي المحافظات، نُمني أنفسنا في سِرنا بنهاية قريبة للحرب، لكن ليس في أيدينا أية حيلة سوى طاعة القدر.

دخلت متجر صديقي (ح.هـ) ألقيت تحيتي، فتاة شابة تتشح بالسواد من رأسها إلى أخمص قدميها تجلس منزوية، قبَّلتُ صديقي ثلاث مرات وحصلت منه على ثلاث قُبلات دون كلام، أومأت برأسي باحترام بالغ لزائرته السوداء التي تظهر وكأنها جاءت توًا من مقبرة، إنها شابة في العشرينيات من عمرها، بيضاء البشرة دائرية الوجه جميلة من غير مكياج، جمالها رباني دون تزييف، خدودها ريانة وفمها دقيق ممتلئ لكن الحزن يركبها تمامًا ولا يدعها تبتسم إطلاقًا، وكأن الحياة قد غادرتها منذ زمن طويل، اتخذت جلستي قربها، المكان لا يتسع، الجو حار، جهاز التكييف يجاهد كي يخفض درجة الحرارة، الجو ممتلئ بالحزن والكآبة.

– الحمد على سلامتك...

قالها صديقي وأطلق زخات من الأسئلة السريعة التي أجبت على بعض منها ثم أردف قائلاً:

– هذه أخت الشهيد...

وأشار بيده إلى الفتاة المتشحة بالسواد وأضاف:

– لقد استشهد شقيقها قبل أيام في جبهات الشرف والقتال، لقد جلبوه موشحًا بالعلم العراقي بعد أن قاتل الأعداء قتال الأبطال.

ثم لوي رقبته وضرب كفه بالآخر أسفًا وحسرة عليه.

تارة أنتبه وأركز على ما يقول (ح.هـ)، وأخرى بطرف عيني أسترق النظر نحو الفتاة الحزينة التي طأطأت رأسها إلى صدرها، كسعف نخيل وسط عاصفة

ترتعش شفتاها دون نظام، نظرات عينيها باردة جامدة وكأنها فقدت عقلها، لم يكن بوسعي أن أفعل شيئًا، ولكني قلت لها:

– البقاء في حياتك، شقيقك لم يمت بل استشهد دفاعًا عن الوطن الغالي، هو حي وروحه ترفرف فوق رؤوسنا، أرجو من الله له الرحمة والغفران، وأن يسكنه فسيح جنانه.

لم تدعني أكمل حتى أجهشت بنوبة هستيرية شديدة من البكاء الساخن، أخذت تبكي بحرقة وتنوح بألم يكاد يقطع نياط القلب، صوتها عذب وجميل رغم مسحة الحزن الظاهرة عليه، دموعها الصافية تنزل ساخنة على خدودها البيضاء صانعة سواقي متلألئة تستقر بعناد على حنكها الناعم الدقيق، يديها البيضاويتان الناعمتان الممتلئتان باردة تهتز من شدة تأثرها، انهارت كليًا، يا إلهي رحماك لقد جئت إلى هنا كي أنسى الحرب ومآسيها وأزيل عن نفسي آثارها وكاهلها، أبتعد عن أزيز محركات الطائرات ورائحة القنابل والقصف، لكن وجدت نفسي كأني في مقبرة حية وآتون حرب نفسية من نوع آخر أشد وطأة وأكثر مرارة.

قلبي يتمزق، أعصابي تنهار، الدموع تترقرق في حدقاتي وقد اتخذت وضعية الاستعداد كي تنطلق من محاجر عيوني ولكني أمسك بها وبنفسي، وقبل أن أنهار؛ أدرت رأسي، متصنعًا القوة والتماسك، تحجرت عيناي تجاه عيناها وقلت لها بصوتٍ حازم:

– أراكِ تبكين وتندبين حظك وتتشحين بالسواد من قمة رأسك حتى أخمص قدميك، شقيقك استشهد دفاعًا عنك وعنا وعن كل العراقيين ولم يمت، إن روحه ترفرف كملاك فوق رؤوسنا وستبقى خالدة إلى الأبد، ما هذا الذي تفعلينه بحق السماء... إنك شقيقة الشهيد وعليك أن تفخري به وبشهادته، إنه أكرمكم وأكرمنا بعمله هذا، فلا تبكي ولا ترتدي السواد عليه، عليك أن تفرحي وتفتخري وترتدي البياض كونك حصلت على أرفع لقب وهو شقيقة الشهيد.

نعم هذا ما قلته لها ساعتها، أردت أن أصدمها، أن أرفعها إلى السماء وأنزلها دفعة واحدة، رغبت أن أشعرها أن ما فعله شقيقها لم ولا ولن يذهب هدر، أردت أن أكسر حاجز الحزن في روحها، وأضفت قائلاً:

– أنا أمامك أمثل مشروع شهيد حَي، أعمل ضابط في الجيش في القوة الجوية وأخدم حاليًا في البصرة، أقاتل كما قاتل شقيقك الشهيد البطل ولا أهاب إن حان قدري، نحن جميعًا نفتدي وطننا بأرواحنا ولن ندع المحتل يدنس حبة رمل واحدة غالية منه، ادعي لروح شقيقك بالرحمة والخلود، واسعدي بشهادته وافتخري كونه ضحى بأغلى شيء وهو حياته من أجلنا، ومن أجل أن نعيش بكرامة نمشي على الأرض ورؤوسنا مرفوعة إلى السماء.

الفاتنة الجميلة المسكينة تصدمها كلماتي تربكها تشتت أفكارها، حديثي الصريح الذي خرج من القلب اتجه مباشرة إلى قلبها الكسير، قلَب كيانها وأحدث هدوء نسبي فيه، تتوقف دموعها التي انسابت كمياه نهر الفرات وقت فيضانه غزيرة على خديها المتوردين، برزانة الملائكة أخرجت من حقيبتها منديل أبيض كبياض قلبها المكلوم تظهر عليه رسوم زهور جميلة وردية اللون، بوقار الأميرات ترفع بيدها البضة الممتلئة البيضاء منديلها الذي بدا رطبًا تمامًا، تمسح أسفل عينيها بعناية ثم تجفف عيونها التعبة الناعسة التي ما زالت جميلة تشع إثارة وصفاء، تستقر أكثر، بعد أن كنت أسمع نشيجها الذي يمزق الشغاف وينفذ ليسحق قلب أي كائن حي أخذت تتماسك، تحاول لملمة أجزائها، تناضل في استجماع ما تبقى من قواها وتطلق كلمة شكرًا، اختزلت هذه الكلمة التي خرجت من فمها كل أحاسيس الامتنان والعرفان وسحقتها في حروفها الأربع وتضيف:

– نعم لقد كان عز الرجال شاب طموح متفتح في مقتبل العمر، لم يرَ الحياة بعد، شهم شجاع مقدام كريم النفس جميل الطلعة وقور السلوك يغرق في حبه لوطنه العراق، متعلم يجيد التعامل مع الكبير كما الصغير على حد السواء،

كعصفور جميل له قلب حنون، لا تفارق الابتسامة شفتاه، لسانه لا يُسقط إلا الكلمات الحلوة المذاق على مسامع الآخرين... لماذا يا ربي تأخذه مني وهو سندي الوحيد!! لماذا اخترته بالذات من بين هذه الملايين يا إلهي!!

لقد جاءت سيارة أجرة تحمل تابوت ملفوف بالعلم العراقي، وتوقفت على أعتاب بوابة بيتنا، فيه ترقد جثة أخي الغالي الذي قتل في إحدى جبهات القتال، توقفت السيارة أنزلوا التابوت بهدوء ثم غادرونا تاركين إيانا في ذهول وجحيم، لقد أحالوا نهارنا إلى ليل حالك السواد، فُجعنا وتحولت في هذه اللحظة حياتنا إلى كابوس خانق.

لقد كظمتُ بكائي في بداية الأمر رغم شدة الألم، بقيت صامتة من شدة الصدمة ثم هَدّ الحزن الثقيل سدود صبري فانفجرت بالبكاء لم أستطع المقاومة وسقطت بعد أن غِبتُ عن هذا الدنيا ومآسيها، مرضت لفترة طويلة، لم أعد أطيق الحياة، إذ لم يبقَ فيها أي طعم لذيذ أو لون براق، لقد فقدت حافز استمرارها ولهذا سقطت في مستنقع الكآبة والحزن الشديد، لقد حكمت الدنيا عليّ بحكمها وها أنا أنفذ مع أحزاني صاغرة...

إني أحتاجه جدًا، إنه نور حياتي الذي به أرى الدنيا... لا أكاد أصدق أني لن أستطيع أن أراه أو ألمسه أو أقبله، آه يا إلهي ما هي حكمتك في هذا! لن أستطيع مداعبة شعره أو أن أشاغبه، لن أحصل على دفء قلبه، من أين آتي بطاقة تحمل أكبر! لقد رحل... كان يساعدني في كل جوانب حياتي، ينصت جيدًا حين أحدثه عن مشاكلي وأمور حياتي، يحاورني ينصحني يمنحني طاقة إضافية، يعطيني أفكار مبتكرة لا أقدر أن أراها وأنا في لُجَّة غضبي وارتباكي، يحل طلاسم وأسرار حياتي بسهولة ويسر، ويضع بين يدي حلول عملية مرئية وقابلة للتنفيذ، شيء ما ينقصني وشقيقي الذي يكملني هكذا كان وهكذا كنا صنوان لا يفترقان صديقان، وها قد رحل ورحلت معه كل أحلامي... لم أعد أراه... يا رب ارحمنا واغفر لي...

أجهشت بالبكاء ثانية وبدأ طوفان دموعها بدمعات ساخنة، دقات قلبها تزداد بعنف تكاد تنتزعه من مكانه، أعصابها مشدودة للنهاية ولا تستطيع أن تتمالك دموعها تنساب أكثر فأكثر.....

ثم تضيف:

– يا لها من دنيا! إنها دار فناء، إن إحساس فقدان العزيز يجعل المرء يحلق على أجنحة الماضي وذكرياته السعيدة، وفي لحظة يسقطه بسرعة إلى وادي الواقع السحيق، لكل إنسان طاقة تتطور أو تتلاشى، وأنا مشاعري تختفي.

أسند صديقي رأسه على يده التي استقرت على حافة منضدته العتيقة، أصابعه القصيرة الممتلئة تغوص في ثنايا خده المكتنز، يريد قول شيء ويعدل عنه، بأسى كبير أمال رأسه إلى صدره وأمسك عن الكلام، لكنه لم يستطع فعاد وقال:

– ياعزيزتي لا تيأسي من رحمة الله وتحلي بالصبر، فهو كالدواء رغم طعمه المر لكنه خير دواء.

– لقد كان شقيقي مائي في عطشي وروحي في جسدي ولم يعد، وهذا ما يفوق طاقة تحملي لقد رحل، نعم رحل... اشتقت لأخي كي أضمه وأستلهم منه طاقة تعينني كي أرى الناس والعالم بها، حزني عميق على فقدانه، عالم كاذب ومزيف، لا شيء يجذبني إليه بعد... حياتي مسرحية قصيرة فصولها حزينة انتهت وأسدلت الستارة.

بعد سماعي كلماتها الساخنة التي اخترقت كل الآفاق لم أستطع التحكم في أعصابي، التي قررت أن تشاركها مهرجان الحزن والبكاء هذا، كسر القلوب يُحدث الكثير من الألم الصامت، في عيوني تكورت دون وعي كرات من دموع ساخنة ثم انزلقت بهدوء على خدي، لم أرغب أن تراني فيزداد حزنها، بسرعة كبيرة مسحت بيدي دموعي واتخذت هيئة جدية صارمة كما لو كنت أبغي إصدار أوامر عسكرية مهمة لأحد أعواني وقلت:

– اسمعي عزيزتي؛ هذه مشيئة الله، ولا راد لها، وهذا قدر شقيقك الذي كُتب على جبينه منذ ولادته، فأرجو أن تتحلي بالصبر والفخر، ونحن العراقيون كلنا مشاريع شهادة في سبيل وطننا الغالي، كما لا بد أن أعتذر منكِ، قد تكون كلماتي قاسية بعض الشيء لذا أرجو أن تسامحيني...

كالبسلم سقطت كلماتي على جروح روحها وأحدثت أثرًا طيبًا في نفسها، استقرت في جلستها وأطلقت نظرة حية حنونة كأنها تحاكي روح الشهيد شقيقها وتمتزج به، انتظرت قليلاً، تردد صوتها في حنجرتها وجهها الأبيض صار أكثر نضارة كأنه يشع نور، أنفها الدقيق أصبح أحمر قاني، خدودها الوردية فاح عطرها، باسترخاء أمسكت أطراف معطفها بيديها اللتان انتعشت الحياة فيهما، ابتسمت عيونها قبل شفاهها، أحيانًا يضحك المرء من شدة الألم... وقالت:

– استودعكما الله وأعتذر عما بدر مني إذ أحلت يومكما إلى مأتم عزاء، اعذراني لقد قاسمتكما حزني فخففتم عني نصفه أو أكثر وارتحت قليلاً... أشكركما من كل قلبي الجريح وأتمنى لكما الصحة والأمان، وأتمنى ألا ترى قلوبكما ما رأى قلبي.

نهضت، لم تضم معطفها الفاحم بقوة بل تركته ينساب بهدوء يبيح للناظر رؤية صدرها الرقيق الأبيض النافر، ورقبتها الشفافة الناعمة، وصولاً إلى وجهها المستدير المملوء بالجمال رغم تعاستها.

– لا تجعلي الألم ينسيك طعم السعادة... لا تجعلي قسوة الدنيا تنسيك الإنسان الذي في داخلكِ... احذري من الحزن فهو قاتل أكثر من الموت نفسه...

هذا ما أردت القول لها وهي تهم الخروج من عتبة باب المحل...

– شكرًا لكما وثوابكما لن يضيع هباء.

قالتها ومضت... خلفت عطرها وغادرت الفتاة الموشحة بالسواد المتجر وشعرها طائر خلفها مثل جناح طائر حزين، رحلت بعد أن تركت نور روحها المُعذبة يسطع فيه، الصمت الرهيب يلفنا، ينظر أحدنا للآخر بعيون باردة يكاد اللون الأحمر يغطيهما، مرت دقائق قليلة ثم قلنا سويًا فلتذهب هذه الحرب إلى الجحيم ولنخرج من حالة الكآبة والحزن التي لفتنا هذا اليوم دون إرادتنا بعباءتها السوداء، لنحتفل بالحياة ما دامت قلوبنا تنبض بالحياة، ولنختم يومنا المتعب بسهرة جميلة في نادي التعارف.

بعد ساعتين أغلق صديقي أبواب متجره الصغير، ركبنا سيارته برتقالية اللون نوع فولفو السويدية الصنع، وطلب مني أن أتربع خلف المقود كوني ضابط وأتمتع بالحصانة من محاسبة الشرطة، إذ أن رقم لوحتها كان لا يسمح لها في السير ذلك اليوم بعد تطبيق قانون المرور الجديد، الذي يسمح لسير السيارات بين يوم وآخر حسب أرقام لوحاتها الزوجية والفردية، توفيرًا للوقود في بلد يعوم على بحيرة من النفط.

انطلقت الفولفو بنا لا تلوي على شيء نحو نادي التعارف الاجتماعي، جلسنا قرب منصة الفرقة الموسيقية، تهافت العمال المصريين الظرفاء لتقديم خدمتهم الرائعة، جلبوا لنا كل ما حوى مطبخهم العامر من طيبات ومازات وكرزات، تناولنا وجبة عشاء من المشويات اللذيذة وشربنا العرق العراقي الذي أنسانا كل هموم الدنيا دفعة واحدة ولم نعد نذكر ما دار عصر اليوم.

خمس وثلاثون سنة مرت على هذا الحدث الأليم، وها أنا أتذكر تفاصيله، أسرده بحيادية مطلقة وأسأل نفسي هل كان تصرفي صحيحًا مع هذه الفتاة التي ظلمتها وفجعتها الدنيا بفقدانها شقيقها في الحرب؟ هل كان موقفي مبالغ به؟ وهل كان بالأساس ضروري أن أصدمها رغم قساوة الزمن عليها؟ هل ساعدتها كلماتي كما أظهرت هي لنا ذلك آنذاك؟ أم أن كلماتي آذتها وكبتت المكلومة آلامها؟

كل هذه الأسئلة تدور في رأسي ولا أجد لها إجابات...